

آليات العمل الحضاري في سورة الشرح

طالب محمد عبد القادر الصرايرة*

ملخص

نزلت سورة الشرح في ظروف الشدة والعسر، ويعيش المؤمنون في كثير من البقاع ظروفًا مشابهة، وفي السورة دروس هامة للعاملين أولها شرح الصدر، شرح الصدر في العمل والمعرفة، ومفتاح شرح الصدر الصبر والصلاة، والثاني: أن العسر ينتهي إلى يسر حتمًا، والعسر سنة دائمة، واليسر سنة مشروطة بالتقوى والتصديق والعطاء، والثالث: مكافحة حال الاسترخاء والتراخي في العمل، والرابع: توجيه العمل والحركة الدائم إلى الله سبحانه وتعالى دون سواه.

الكلمات الدالة: سورة الشرح، العمل الحضاري.

The techniques of civilised work in Al-Sharh Surah

Taleb Mohammad Al-Saraireh

Abstract

Al-Sharh Surah was revealed during hardship. Believers live similar conditions all over the world.

This Surah contains essential lessons:

First: it teaches people how to be open-minded and foleraut both when it comes to knowledge seeking and work, the key to these of tributes being patience and prayers.

Second: It teachers that Hardship will enivitably while hardship abate off. is the pemineut condition, Ease is confiageut on good will.

Third: It combats carelessness.

Founth: It teaches one to durect one's deals constantly towards Allah only.

Keywords: Al-Sharh Surah, civilised work .

* قسم أصول الدين، كلية الشريعة، جامعة مؤنة.

تاريخ قبول البحث: 2009/6/14.

تاريخ تقديم البحث: 2009/2/8.

© جميع حقوق النشر محفوظة لجامعة مؤنة، الكرك، المملكة الأردنية الهاشمية، 2010.

إن الحمد لله نحمده ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، والصلوة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

إن القرآن الكريم ليس كتاب هداية دينية ومواظ روحية فقط، بل هو كتاب عمل في التحضر والملك والسياسة والعلوم والمعارف، وهو حاضرٌ في قلب أحداث الحياة الإنسانية؛ لأنه يطرح أمام الإنسانية مناهج التدبر والتأمل والعمل، وكتاب شامل يغطي مجالات الحياة كافة، ويستوعب قضايا الإنسانية الاجتماعية، والسياسية، والاقتصادية، والتاريخية، ويؤسس لقيام حضارة قرآنية إسلامية، وسيادة عالمية، تريح الإنسانية المعذبة بالقلق والحيرة، والمهددة بالحروب المفضية.

واليوم، تعيش أمتنا الإسلامية مرحلة خطيرة وحرجة من التراجع الحضاري، بل من التبعية الحضارية للغرب، واعتمادها في غذائها ودوائها وسلاحها على عددها؛ مما أفقدها القدرة على العمل والانتاج، وأصابها بضغط حضاري استعماري عالمي، لا يسمح لها بالمعاصرة والتقدم في ميادين العمل.

وترمي الدراسة إلى بيان آليات العمل الحضاري في سورة الشرح القائمة على الأداء السني المتقن المحقق لطموحات الأمة، المرتبط بمنهج الله تعالى، والمساهمة في إعادة العمل إلى أمة العمل؛ لتحقيق مرتبة الشهادة والريادة التي ارتضاها ربنا تبارك وتعالى.

وعليه فإنه يتعين على علماء هذه الأمة أن تنفر طائفة منهم؛ ليتفرغوا لعملية الفقه الحضاري، كجزء جوهري من عمليات الفقه الديني؛ لكي تنشأ وتقوم الأجهزة العاملة في حياة الأمة في التربية والتعليم، والسياسة، والاقتصاد... الخ، لقوله تعالى: (وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهَبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ) [60: الأنفال].

إن الدراسات القرآنية لها حضور دائم في حياة المسلمين، حيث تعد من أهم أعمال المسلمين في بيان مناهج شؤون الحياة والمعارف العلمية، التي تعيد للمسلمين دورهم القيادي، وتمكّن لدين الله الحق في الأرض وما ذلك على الله بعزيز.

وهذا البحث محاولة للوقوف عند آليات العمل الحضاري في سورة الشرح؛ للنهوض بالأمة في ضوء الإيمان ومسؤولية الجميع، وضرورة أن يعمل الجميع بتقاهم وثقة وفاعلية؛ لبناء صرح الحضارة الإسلامية، تتشارك فيه القيادة والأمة.

واشتملت الدراسة على أربعة مباحث:

المبحث الأول: شرح المصدر.

المبحث الثاني: الأمل.

المبحث الثالث: المقاومة.

المبحث الرابع: الذكر والارتباط بالله.

التمهيد

اشتمل على تعريف العمل والحضارة في اللغة والاصطلاح، ثم التعريف بسورة الشرح على النحو الآتي:

أ. العمل في اللغة والاصطلاح

العمل في اللغة:

هو المهنة والفعل، والجمع منه أعمال⁽¹⁾، واعتمل الرجل عمل بنفسه وأعمل رأيه وآلته⁽²⁾، والعمل كل فعل يكون من الحيوان بقصد، فهو أخص من الفعل؛ لأن الفعل قد ينسب إلى الحيوانات التي يقع منها فعلٌ بغير قصد، وقد ينسب إلى الجمادات، والعمل قلماً ينسب إلى ذلك⁽³⁾.

ويتضح لنا من المعنى اللغوي: أن العمل يصدر من العاقل بقصد وتعقل.

العمل في الاصطلاح:

هو الجهد والمشقة التي تقابل بالمنفعة أو المادة⁽⁴⁾، أو هو: العنصر الثاني للإنتاج، وهو أثر من آثار الحياة البشرية، ومظهر من مظاهر قوتها ومطابقتها⁽⁵⁾.

والعمل يعم أفعال القلوب والجوارح، ولا يُقال إلا فيما كان عن فكر وروية، ولهذا قرن بالعلم، حتى قال بعض الأباء: قُلب لفظ العمل عن لفظ العلم، تنبيهاً على أنه من مقتضاه⁽⁶⁾.

ويعرفه الدكتور طه عبد الرحمن بأنه: "الاستجابة لمتطلبات الحياة الضرورية والعاجلة، ومواجهة مشاكل المجتمع بقصد إيجاد الحلول لها"⁽⁷⁾.

ب. الحضارة في اللغة والاصطلاح

الحضارة في اللغة:

مأخوذة من الحَضَرَ بفتح الحاء وبفتحتين ضد البداوة، والحاضرة: خلاف البادية، وهي المدن والقرى والريف⁽⁸⁾، والحضارة: الإقامة في الحضر، وهي مرحلة سامية من مراحل التطور الإنساني، ومظاهر الرقي العلمي والفني والأدبي والاجتماعي في الحضر⁽⁹⁾.

والحضارة تعني في أصل اللغة: إقامة مجموعة من الناس في الحضر، أي في موطن العمران، سواء كانت مدناً أو حواضر أو قرى⁽¹⁰⁾.

الحضارة في الاصطلاح:

يمكن التأكيد على أن مفهوم الحضارة مفهوم جديد في الفكر الإسلامي، إذ إن هذا المصطلح لم يستعمل في إطار العلوم الإنسانية إلا في القرون القليلة الماضية، ولذلك تفاوتت آراء أهل الفكر الإسلامي في تعريفهم للحضارة.

فالحضارة في المفهوم الخلدوني هي: نهاية التطور الثقافي وبداية الدور الحضاري متمثلاً في الرقي الاجتماعي والاقتصادي والعلمي⁽¹¹⁾.

ويرى سيد قطب الحضارة بأنها: ما تعطيه للبشرية من تصورات ومفاهيم ومبادئ وقيم تصلح لقيادة البشرية، وتسمح لها بالنمو والترقي الحقيقيين، النمو والترقي للعنصر الإنساني وللقيم الإنسانية وللحياة الإنسانية⁽¹²⁾.

ويعرفها أبو الأعلى المودودي بقوله: "مجموعة المناهج والقوانين التي قررها الله - سبحانه تعالى - لكل هذه الشؤون والشعب المختلفة لحياة الإنسان.... وهي المعبر عنها بكلمة دين الإسلام أو الحضارة الإسلامية"⁽¹³⁾.

ويضيف مالك بن نبي بأن الحضارة: مجموعة من العلاقات بين المجال الحيوي حيث تنشأ ويتقوى هيكلها، وبين المجال الفكري حيث تولد وتنمو روحها، أي هي جملة الشروط المعنوية والمادية التي تسمح لمجتمع ما أن يقدم لكل فرد من أعضائه الضمانات الاجتماعية لتقدمه⁽¹⁴⁾.

وخلصت الجمعية الإسلامية للبناء الحضاري بأن الحضارة: "حصيلة تفاعل الجهد الإنساني مع سنن الله الكونية والتشريعية، وفق الرؤية الكونية التوحيدية من أجل الترقى المعرفي والروحي والسلوكي والعمراني"⁽¹⁵⁾.

إن مفهوم الحضارة اتسع ليشمل التعبير عن ارتقاء المجتمع وارتفاعه، والمجتمع المتحضر ذلك المجتمع الذي له قيمة الروحية الرفيعة، وأساليبه المادية المتطورة⁽¹⁶⁾ المنضبطة مع تعاليم الإسلام في الكتاب والسنة، من أجل تحقيق غايات الإنقاذ والتعارف والإعمار وبلوغ أهداف الصعود والارتقاء في مجالات الروح والمعرفة والسلوك.

وبناءً على تعريف العمل والحضارة يمكن القول إن المقصود بآليات العمل الحضاري: الأداء السنني القائم على العمل المثقف المنتج، المتواصل، المؤثر في حركة التاريخ، المحقق لطموحات الأمة في التطبيق مع منهج الله تعالى.

وعليه فالعمل الحضاري حركة في التاريخ نحو خير الإنسانية بما ينتج عنه عطاء في مجالات الحياة المختلفة، من العلوم والصناعات وال عمران وغيرها، وكل ما يفيد الإنسانية بشكل عام؛ لأن من أهم خصائص العمل الحضاري الإسلامي إنسانيته وعالميته، فلا يقتصر على المسلمين فقط، بل هو لكل الشعوب والأمم على وجه المعمورة، إفادة واستفادة، عطاء وأخذاً، وذلك متوقف على حسن التعامل مع سنن الله في الخلق فهماً واستيعاباً؛ لإخراج العالم الإسلامي من بوتقة التراوح وعدم التحرك، وتزويدها بالطاقة اللازمة من أجل العودة إلى مسرح صنع التاريخ، وقيادة ركب الحضارة الإنسانية؛ لإفادة الإنسان معرفياً وروحياً وسلوكياً وعمراً من خلال إحكام صلة الأمة بالسنن التي أودعها الله تعالى في الأنفس والآفاق، لقوله تعالى: (وَكَايْنِ مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَاباً شَدِيداً وَعَذَّبْنَاهَا عَذَاباً نُّكَراً * فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْراً) [8: الطلاق].

جـ. التعريف بالسورة:

قال تعالى: (أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ * وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ * الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ * وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ * فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً * إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً * فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ * وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ) [1-8: الشرح].

سورة الشرح سورة مكية نزلت في ظروف الشدة والعسر في مكة في الفترة الصعبة التي كان رسول الله صلى الله عليه وسلم- والصحابه يلقون فيها ألوان الاضطهاد والأذى على أيدي عتاة قريش، وآياتها ثمان باتفاق، وهي شديدة الاتصال بسورة الضحى⁽¹⁷⁾.

واحتوت "على ذكر عناية الله لرسوله صلى الله عليه وسلم- بلطف الله له وإزالة الغم والحرَج عنه، وتفسير ما عسر عليه، وتشريف قدره لينفس عنه، فعضمونها شبيهه بأنه حجة على مضمون سورة الضحى تثبيتاً له بتذكيره سالف عنايته به، وإنارة سبيل الحق وترفع الدرجة، ليعلم أن الذي ابتدأه بنعمته ما كان ليقطع عنه فضله، وكان ذلك بطريقة التقرير بماض يعملُه النبي صلى الله عليه وسلم- وأتبع ذلك بوعد

بأنه كلما عرض له عسر فسيجد من أمره يسراً كدأب الله -تعالى- في معاملته، فليتحمل متاعب الرسالة ويرغب إلى الله في عونه»⁽¹⁸⁾.

ويعيش الدعاة إلى الله اليوم في كثير من أقطار العالم الإسلامي ظروفًا مشابهة للظروف التي عاشها الرعيل الأول من المسلمين بصحبة رسول الله -صلى الله عليه وسلم- في مكة، ولذلك تبقى سورة الشرح قائمة للعاملين والمجاهدين في سبيل الله في عصرنا يحتاجون إلى استيعاب وفهم آليات العمل فيها، مما يمكنهم من مواصلة الطريق، وتجاوز العقبات الكثيرة الموجودة على هذا الطريق في ظروف غربة الإسلام ومحنته، كما كان سلفنا يحتاجها في مكة في الأيام الأولى من ميلاد الرسالة.

المبحث الأول: شرح الصدر

شرح الصدر: بسطه بنور إلهي وسكينة من جهة الله وروح منه⁽¹⁹⁾، قال تعالى: (رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي) [25: طه]، وهو في مقابل ضيق الصدر، والصدور الضيقة لا تستوعب هموم العمل ومتاعب المواجهة، فتطفح عليها المتاعب وهموم العمل، وتتحول إلى الجزع والتعب واليأس، فأصل الشرح: الفصح والتوسعة⁽²⁰⁾.

والصدور التي يشرحها الله فإنها تستوعب المشاكل والهموم والمتاعب، وتتحول فيها إلى الصبر والمقاومة، والاستعانة بالله والتوكل عليه، إذ إن الصدور وعاء شخصية الإنسان، وهي على طائفتين: الصدور الواسعة التي شرحها الله، والصدور الضيقة الحرجة، في قوله تعالى: (أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّن رَّبِّهِ قَوْلٍ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِّن ذِكْرِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ) [22: الزمر]، وقوله تعالى: (فَمَنْ يَرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يَرِدْ أَن يَضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصْعَدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرُّجُسَ عَلَى النَّبِيِّنَ لَا يُؤْمِنُونَ) [125: الأنعام].

وشرح الصدر أو ضيق الصدر مرتبط بالتوحيد للخالق -جل وعلا- وصقل الصدر بنور الهداية والحق⁽²¹⁾، وفي ذلك يقول الرازي رحمه الله:- "إنه تعالى خلق جواهر النفوس مختلفة بالماهية، فبعضها خيرة نورانية شريفة، ماثلة إلى الإلهيات، عظيمة الرغبة في الاتصال بالروحانيات، وبعضها نذلة كدرة خسية ماثلة إلى الجسمانيات، وفي هذا التفاوت أمر حاصل في جواهر النفوس البشرية، وإذا عرفت ذلك فالمراد بشرح الصدر هو ذلك الاستعداد الشديد الموجود في فطرة النفس، وإذا كان الاستعداد الشديد حاصلًا كفى خروج تلك الحالة من القوة إلى الفعل بأدنى سبب، أما إذا كانت النفس بعيدة عن قبول هذه الجلايا القدسية والأحوال الروحانية، بل كانت مستغرقة في طلب الجسمانيات، قليلة التأثر عن الأحوال المناسبة للإلهيات، كانت قاسية كدرة ظلمانية"⁽²²⁾، لقوله تعالى: (وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبِيبُ إِلَيْكُمْ الْأَيْمَانَ وَزَيْنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَتْ إِلَيْكُمْ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ) [7: الحجرات].

شرح الصدر في العمل:

إن أول ما يحتاجه الدعاة إلى الله في ساحة العمل هو شرح الصدر، ولقد بعث الله سبحانه كلمه موسى -عليه السلام- إلى بني إسرائيل وفرعون ليدعوهم إلى الله تعالى، فلم يطلب منهم مالا ولا سلطاناً، وإنما طلب من ربه تعالى شرح الصدر وتيسير الأمر، فقال: (قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي * وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي) [25-26: طه]، فقد طلب -عليه السلام- شرح الصدر؛ "ليقف على دقائق المعرفة وأسرار الوحي ويقوم بمراسم الخدمة والعبادة على أتم وجه، ولا يضجر من شذائد التبليغ..... وذلك يحتاج إلى تكاليف شاقة من تلقي الوحي والمواظبة على خدمة الخالق سبحانه وتعالى وإصلاح العالم السفلي، فكأنه كلف بتدبير العالمين، والالتفات إلى أحدهما يمنع من الاشتغال بالآخر، فسأل شرح الصدر حتى يفيض عليه من القوة ما يكون وافياً بضبط تدبير العالمين"⁽²³⁾.

إن الذي يحتاجه العاملون والدعاة والمجاهدون على طريق ذات الشوكة أمران:

الأول: مضاعفة التحمل، والثاني: تخفيف الحمل، وكلاهما سأل الله تعالى موسى -عليه السلام- في بداية المهمة، ولكنه قدم السؤال الأول على السؤال الثاني، ويطلب من الله تعالى أن يضاعف تحمله أولاً، ثم يطلب من الله تعالى أن يخفف عنه الحمل، "واستعير الشرح هنا لإزالة ما في نفس الإنسان من خواطر تكدره أو توجب ترده في الإقدام على عمل ما"⁽²⁴⁾.

وفي بدايات الدعوة، أيام الشدة والضيق كان أول ما من الله به على عبده ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم - هو شرح الصدر: (أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ) [1: الشرح].

وإن ساحة العمل وطريق ذات الشوكة صعب، ولولا إسناد الله تعالى ودعمه وتطمينه لنفوس أنبيائه وعباده الصالحين لضاقت صدورهم مما يلاقون، يقول تعالى مخاطباً رسوله: (وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرَكَ بِمَا يَقُولُونَ) [97: الحجر]، ولكن الله تعالى يؤيد أنبياءه مرتين:

يشرح صدورهم، ويضاعف في تحملهم أولاً ثم يرفع عنهم الحمل، ويضع عنهم ثقل العمل ثانياً.

وجاءت الآية اللاحقة للآية السابقة في قوله تعالى: (فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ) [98: الحجر]؛ "لأن الجبل البشرية والمزاج الإنساني يقتضي ذلك، عندئذ أمره بأربعة أشياء: بالتسبيح والتحميد والسجود والعبادة، والإقبال على هذه الطاعات سبباً لزوال ضيق القلب والحزن، والانشغال بهذه العبادات تكشف أضواء عالم الربوبية، ومتى حصل ذلك الانكشاف صارت الدنيا بالكلية حقيرة، وإذا صارت حقيرة خفَّ على القلب فقدانها، فلا يستوحش من فقدانها، ولا يستريح بوجودها، وعند ذلك يزول الحزن والغم"⁽²⁵⁾.

ولهذا أمر الله تعالى نبيه عليه السلام: (أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ * وَوَضَعْنَا عَنكَ وَزْرَكَ * الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ) [3-1: الشرح]، بأن يصبر ويوسع صدره لما يلاقي من قومه ولا يجزع، ولا يفقد صبره كما فقد سيدنا يونس عليه السلام صبره في قوله تعالى: (فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ) [48: القلم]، والمكظوم: المملوء غيظاً وقرباً وغضباً وضجراً وعجلة⁽²⁶⁾.

إن شرح الصدر أول متطلبات العمل كما قلنا قبل قليل، وفي الوقت نفسه لا يزود الله الإنسان بشرح الصدر إلا أن يدخل في ساحة العمل، فليس يكتسب الإنسان شرح الصدر في عقر بيته، وفي أيام العافية واليسر، وإنما يكتسب شرح الصدر في ساحة المواجهة والعمل، وفي أيام الشدة والضيق، وبين شرح الصدر ومساحة العمل علاقة تبادلية، وهي واحدة من سنن الله تعالى في ساحات العمل وأيام العسر والشدة.

(وَوَضَعْنَا عَنكَ وَزْرَكَ) [2: الشرح]، والوزر هنا الحمل والنقل⁽²⁷⁾، وهو ثقل العمل والرسالة الذي كاد أن ينقض ظهر رسول الله صلى الله عليه وسلم - لولا تأييد الله وإسناده، وأما تفسير الوزر بالذنوب أو بالنبوة⁽²⁸⁾، فلا يتناسب مع شرح الصدر وتخفيف الحمل.

ووضع الوزر بالتأييد للرسول - عليه السلام - كما حصل يوم غزوة بدر الكبرى التي عرضتها سورة الأنفال من التأييد بالملائكة الكرام وإنزال المطر وغيرها، والتأييد لموسى - عليه السلام - من شق البحر وغيرها من المعجزات.

وحالة الهلع هي حالة ضيق الصدر في قوله: (إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً * إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً * وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً) [19-21: المعارج] فالهلع: الحرص وأسوأ الجزع، وأفحشه، والهلع: الإنسان إذا مسه الخير لم يشكر، وإذا مسه الضر لم يصبر⁽²⁹⁾ ولا يكون الجزع إلا عند الابتلاء بالشر، فإن الشر يفيض ويطفح على الصدر الضيقة، وأما الصدور الواسعة فإنها تستوعب الشر، وتحوله إلى صبر وحلم وذكر، فالطغيان والكفر والمنع والشح من إفراز الصدور الضيقة، أما الصدور الواسعة فمردودها الذكر، والشكر، والعبودية، والصبر، والحلم، والعطاء، لقوله تعالى (كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ * أَنْ رَأَاهُ اسْتَغْنَى) [7-6: العلق].

شرح الصدر في العلم والمعرفة:

الصدور أوعية العلم والمعرفة، كما هي أوعية الابتلاء، فمن الصدور، صدور شرحها الله تعالى للعلم والمعرفة، فتعي وتبصر، وتتلقى من النور والوعي ما لا يتلقاه الآخرون؛ لتقل التوجيه الإلهي من ميدان النظر إلى ميدان التطبيق، ففهم الوحي وتتفذه وتدعو الآخرين إلى اعتناقه؛ لينهض جهاز الدعوة والأمر

والنهي، وهو جهاز يمثل خصائص المناعة ضد العلل المغيرة، ومهمته إبقاء الرسالة والأمة معاً على الدرجة المطلوبة من السلامة والاستقامة⁽³⁰⁾.

يقول تعالى: (أَمَّنْ شَرَحَ اللهُ صَنْدَرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّن رَّبِّهِ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِّنْ ذِكْرِ اللهِ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ) [22: الزمر]، وهذا من رشاقة ألفاظ القرآن إثارة كلمة "شرح" للدلالة على قبول الإسلام؛ لأن تعاليم الإسلام وأخلاقه وآدابه تكسب المسلم فرحاً بحاله ومسرة برضى ربه، واستخفافاً للمصائب والكوارث؛ لجزمه بأنه على حق في أمره، وأنه مثاب على ضره⁽³¹⁾، ولذلك جاء التعبير بـ"من" دون "عن" في قوله تعالى: (فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِّنْ ذِكْرِ اللهِ) [22: الزمر]، أي أنها ما ذكرت، والقسوة من أجل الذكر وبسببه⁽³²⁾، "ولما كان القلب شديد الاضطراب والتقلب دل على حفظه له بنافذة أمره وباهر عظمته بالتعدي بـ"إلى" ليكون المعنى: ساكنة مطمئنة"⁽³³⁾.

فالصدر التي شرحها الله تعالى يدخلها النور، وأما القاسية فلا ينفذ إليها النور، وليس العجز في النور، ولكن في الصدر، فإن النور ينزل على كل مكان من غير حساب، ولكن الصدر تحتجب عن نور العلم والمعرفة عندما تكون قاسية.

وبالصدر المسلحة بالعلم والمعرفة استطاع المسلمون الأوائل أن يتلقوا دعوة نبيهم وأن يفهموها ثم يؤمنوا بها، وأن يقفوا إلى جوار الحق ينافحون عن هذه الدعوة ويصدون حملات الشرك، ويتحملون أذى المشركين وعسفهم صابرين؛ فلم تعرف قلوبهم الخوف، فقوتهم من قوة دينهم الحنيف⁽³⁴⁾.

فرسالة سورة الشرح هي رسالة الإسلام التي انبنت على دعائم رئيسة أساسها العلم والإيمان، لذلك افتتحت رسالة محمد -عليه السلام- بقوله تعالى: (اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ) [1: العلق]، هي دعوة إلى العلم عن طريق المنهج اللدني والوحي الرباني.

وقرن سبحانه الإيمان بالعمل الصالح، هذا الأخير الذي أنار نبراسه العلم النافع، قال تعالى: (وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا) [55: النور]، فينتصر الإيمان والعمل بالعلم على القوة والكثرة، والجبروت، "إن الذي وقف في معارك الإسلام الكبرى المؤمن الصابر الصامد المناضل من أجل الحق والحرية ورسالة السماء، وهو الذي روع هرقل إمبراطور الرومان في حروبهم في الشام"⁽³⁵⁾، وهذا تميز إيماني وروحي، ولا يتصور للداعية نجاح وتوفيق، أو تميز وقبول، إن يكون حظه من الإيمان عظيماً⁽³⁶⁾.

وفي ذلك يقول مالك بن نبي: "فليست المشكلة أن نعلم المسلم عقيدة هو يملكها، وإنما المهم أن نرد إلى هذه العقيدة فاعليتها وقوتها الإيجابية، وتأثيرها الاجتماعي، وفي كلمة إن مشكلتنا ليست في أن نبرهن للمسلم على وجود الله، بقدر ما هي أن نشعره بوجوده، ونملأ به نفسه باعتباره مصدراً للطاقة"⁽³⁷⁾.

وبهذه الطاقة للشرح في العلم والمعرفة والعلم برنامج للتحويل الحضاري المرجو لهذه الأمة المؤمنة، "فالعلم مخ الحضارة، وهو خط الدفاع الأول عن الأمة، فالجيش في أمة جاهلة جيش أُمي، لا يستطيع أن يصبر في معارك اليوم لحظة"⁽³⁸⁾.

يقول ابن كثير -رحمه الله-: "فأول شيء نزل من القرآن هذه الآيات (اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ) [5-1: العلق]، وهي أول رحمة رحم الله بها العباد، وأول نعمة أنعم الله بها عليهم، وفيها التنبيه على ابتداء خلق الإنسان من علق، وأن من كرمه تعالى أن علم الإنسان ما لم يعلم، فشرفه وكرمه بالعلم وهو القدر الذي امتاز به أبو البرية آدم على الملائكة"⁽³⁹⁾.

وهذا دليل على أن العمل الحضاري في الإسلام قام نتيجة تفاعل القلوب المؤمنة مع الوحي، فالمسلمون في ظرف قصير بعد نزول الوحي وإكمال الدين ملكوا رقعة واسعة شاسعة من العالم، بل ملكوا حضارات أخرى بالمعرفة والاجتهاد، ذلك لأنهم قرؤوا فأكرمهم الله تعالى، وما ربط الكرم في الآية السابقة بالقراءة إلا دليل واضح يدل على أن القارئ والمتعلمين والعلماء مكرمون بكرم الله تعالى، وفي هذا يقول توينبي: "إن ارتفاع نسبة قراء الكلمة المطبوعة هو الأساس الحضاري لتصنيف البلدان في العالم إلى دول متخلفة أو نامية أو متقدمة"⁽⁴⁰⁾.

إن التكريم الحضاري لا يكون له وجود إلا عن طريق القراءة والعلم، فإن سنة الله تعالى أبت إلا أن تتحقق عن طريق العلم وتعليمه الذي هو: "طلب المعرفة بسنن الله في خلقه، وتحصيل مناهج البحث عنها، والاستفادة منها، وترقية الحياة الإنسانية هو من خصائص المجتمع الإسلامي ومميزاته الأساسية"⁽⁴¹⁾.

أسباب الشرح:

يؤكد القرآن الكريم أسباب الشرح في قوله تعالى: (فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرُّجُسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ) [125: الأنعام]، وهذا مثل ضربه الله لقلب الكافر في شدة ضيقه عن وصول الإيمان إليه، يقول فتمثله في امتناعه من قبول الإيمان وضيقه عن وصوله إليه مثل امتناعه عن الصعود إلى السماء وعجزه؛ لأنه ليس في وسعه وطاقته"⁽⁴²⁾.

وهذا تأييد لقوله: (أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ) [1: الشرح]، وقوله: (رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي) [25: طه]، وقوله: (أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ) [22: الزمر]، وكلها تؤكد أن شرح الصدور بيد الله، يشرحها ويضيئها، فإذا شرحت دخلها النور والمعرفة، وإذا ضيقت انغلقت عن النور والمعرفة، ونظير ذلك النصر فإنه من عند الله دون ريب، والقرآن يقرر هذه الحقيقة وينسب النصر إلى الله في أكثر من موضع كقوله: (إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ) [1: النصر]، وقوله: (إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا) [1: الفتح]، وقوله: (وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصَرِهِ مَنْ يَشَاءُ) [13: آل عمران]، وقوله: (وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ) [10: الأنفال]، وفي ذلك تسليمة وشرح لقلوب المؤمنين بعد الغم والحزن من تأخر الفتح والنصر⁽⁴³⁾، وذلك مشابهة للقلوب الموحدة المعاصرة في الهم والغم والحزن في احتلال أوطانها ومقدساتها، وما يعانيه الأهل في غزة هاشم من الاعتداء الغاشم عليها وعلى رجالها ونسائها وأطفالها قتلاً وحرقاً وتدميراً، ومعاناة الأهل في العراق وكافة بلاد المسلمين.

إلا أن ذلك أحد وجهي هذه القضية وهو حق صحيح، والوجه الآخر أن أسباب النصر الإلهي بيد الإنسان نفسه، لقوله تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ) [7: محمد]، أي أن نصر الله وفتحته مرتبط بنصرة دينه⁽⁴⁴⁾، وهذا هو الوجه الثاني لهذه القضية، ولا يشق علينا أن نجمع هذين الوجهين معاً في تصور واحد متكامل.

ولتحقيق ذلك نتأمل في قوله تعالى: (وَأَعِثُوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ) [60: الأنفال]، فالإعداد المادي والمعنوي من آليات العمل الحضاري الذي يحقق الشرح واليسر للأمة، الأمر الذي يحقق أمنهم القتالي، واستراتيجية ردعهم للباطل وأهله؛ لأن لفظ "القوة" المأمور به لفظ عام⁽⁴⁵⁾ يشمل جميع ما يستعان به من الأسلحة المادية والمعنوية.

وقد وجه القرآن الكريم الأمة المسلمة إلى آليات العمل الحضاري المؤدي إلى الاستخلاف والتمكين في الأرض القائم على العمل والعلم، وأمرهم بالبحث عن منابع القوة وعناصرها في سورة تحمل اسم الحديد الذي هو أصل الصناعات في قوله: (وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ) [25: الحديد]، ومصالح الأمة أصول وفروع، فالأصول أربعة: الزراعة، والحياسة، وبناء السيوف، والسلطنة، والفروع متصلة بذلك، ولن يكون النصر بدون السيوف والرماح وسائر أنواع السلاح وهي مرتبطة بالحديد⁽⁴⁶⁾.

إلا أن تعلم الرمي اليوم واستخدام الخيل لا يحقق هدف العمل مع العدو ولا يصيب هدفه؛ لاستعمالهم الرمي بالبنادق والمدافع والأسلحة الجرثومية والكيميائية والنووية يقول الألويسي رحمه الله: "إذا لم يقابلوا بالمثل عمّ الداء العضال، واشتد الوبال والنكال، ومكث البسيطة أهل الكفر والضلال"⁽⁴⁷⁾.

يقول رشيد رضا: "الواجب على المسلمين في هذا العصر بنص القرآن صنع المدافع بأنواعها، والبنادق، والدبابات، والطائرات، وإنشاء السفن الحربية بأنواعها، ومنها الغواصات التي تغوص في البحر، ويجب عليهم تعلم الفنون والصناعات التي يتوقف عليها صنع هذه الأشياء وغيرها من قوى الحرب"⁽⁴⁸⁾.

وبذلك يمكننا القول بأن امتلاك الأمة لأسلحة الدمار ومنها أسلحة الدمار الشامل، يُعدّ أمراً ضرورياً ولازماً، وإن لم تقم الأمة بهذه الضرورة تكون قد تخلفت عن مقتضيات عصرها، وتفقّد قيمتها وفعاليتها، وتعرض نفسها للضيّق والخطر والهلاك⁽⁴⁹⁾، ومسؤولية الأمة في ذلك هي مسؤولية حكوماتها، بتهيئة الأسباب المادية والمعنوية اللازمة لصنعها، وإن لم تقم بذلك فإنها تقع في الإثم؛ لتقاعسها عن أداء فرض هو من فروض الكفاية، وإن لم يفعلوا سيكونون في مؤخرة الأمم⁽⁵⁰⁾.

وكل ذلك يحتاج إلى العمل، يقول د. أحمد نوفل: "يجب أن تتحول الأمة إلى خلية نحل داوية لا تهدأ، ولا تكف عن العمل، إن أمة تترك أن لها عدواً لا تنام، ولا تكف عن الحشد والحركة والتعبئة، ولكن أمة تغفل، وتفترق، وتختلف، وعدوها يتحد ويتحشد لها، مقضي عليها بأن تخرقها عيونها، وتقتحمها نفوسه، وتحتلها جيوشه بعد ذلك، وأول الهزيمة جراحة العدو عليك، وأول نصر خشيتك منك"⁽⁵¹⁾.

ولكن من أقطع الخطأ في فهم كتاب الله أن نفكك بصائر الكتاب، بعضها عن بعض، ونحاول أن نفهم بعضها مفصلاً عن بعض، إن هذا المنهج التفكيكي في فهم القرآن يؤدي إلى أخطاء كبيرة، ويتسبب في ظهور نحل ومذاهب منحرفة، عندئذ تكون معوقاً من معوقات العمل الحضاري الناجح.

المبحث الثاني: الأمل

الأمل: هو ما تقيد بالأسباب⁽⁵²⁾، في قوله تعالى: (فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا * إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا) [5-6: الشرح]، هذه سنة من سنن الله في التاريخ، ووعي هذه السنة ينفع العاملين في سبيل الله كثيراً، ومن يعرف أن من بعد العسر يسرا، لا يستغرقه العسر، ولا يسقط في العسر، أما إذا كان لا يعرف الإنسان أن من وراء العسر يسرا، فإن العسر لا محالة يستهلكه ويستغرقه، تماماً كما إذا كان الغريق يرى قارب النجاة يقترب منه سريعاً، أو يصرخ فلا يسمعه أحد، ولا يراه أحد، والأمواج تقذفه وتبتلع.

إن تجنب وسائل الإحباط والعمل على بث الأمل في نفوس الأفراد والأمة، وتشجيعهم على العمل الدائم المتواصل بابتكار وسائل جديدة للأفراد في عباداتهم ومعاملاتهم ووجوه نشاطهم التربوي والحركي،

ومحاربة اليأس في النفوس، فالداعية إلى الله تعالى لا ييأس من نصر الله وتأييده ويبعث الأمل في نفوس هؤلاء في أجر الله وثوابه، وأن الله لن يترهم من أعمالهم شيئاً⁽⁵³⁾.

إن سنة اليسر بعد العسر من السنن الإلهية التي ورد التأكيد عليها في القرآن الكريم في مواضع عديدة، والإيمان بهذه السنة ووعياها من ضرورات العمل الحضاري، وذلك يحتاج إلى الحكمة في العمل؛ وهي العلم بالحق والعمل به⁽⁵⁴⁾ لإبراز الدلالة العملية لمفهوم الحكمة في الممارسة الإسلامية⁽⁵⁵⁾.

قال تعالى: (وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ * وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ * وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا أُوْ حَظٌّ عَظِيمٌ) [33-35: فصلت]، وهذا النص منهج عملي حضاري للحياة الدنيا والآخرة، أبان فيه القرآن في كثير من آياته لينبه الأذهان إلى هذا المنهج الموثق في جنباته، والذي يكمن فيه سعادة البشرية بعد شقاء، وهدايتها بعد ضلال، وتبصيرها بعد عميها⁽⁵⁶⁾، لقوله تعالى: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا) [174: النساء]، وقوله: (قَدْ جَاءَكُمْ مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ * يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) [15-16: المائدة].

ويتحدث "توماس كاريل" عن معجزة الإسلام فيقول: "خرجت جيوش رعاة الأمس تقتحم الأرض شرقاً وغرباً وتفتح باسم الدين الجديد، وفي خلال قرن واحد من الزمان قضت على القوى العظمى وملكت الأرض من تحت أقدامهم، إنها معجزة، ولولا أنها حقيقة تاريخية لقلت إنها خرافة أو خيال، لقد كانت حجة محمد أشبه ما تكون بشرارة ملتبهة لا على كثران كسولة من رمال الصحراء، ولكن على جبال من البارود الذي تفجر مرة واحدة، فعمَّ نوره الآفاق من هضاب الهند حتى سهول الأندلس"⁽⁵⁷⁾.

إن سنة الابتلاء سنة مصاحبة للعسر واليسر، لقوله تعالى: (وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ) [165: الأنعام]، وقوله: (الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا) [2: الملك]، فالابتلاء مرتبط بالتمكين ارتباطاً وثيقاً، فلقد جرت سنة الله تعالى ألا يمكن لأمة إلا بعد أن تمر بمراحل الاختبار المختلفة، وأن ينصهر معدنها في بوتقة الأحداث، فيميز الله الخبيث من الطيب⁽⁵⁸⁾.

وهي سنة جارية على الأمة الإسلامية لا تتخلف، فقد شاء الله تعالى أن يبتلى المؤمنين ويختبرهم؛ ليمحص إيمانهم، ثم يكون لهم التمكين في الأرض بعد ذلك، ولذلك جاء هذا المعنى على لسان الإمام الشافعي -رحمه الله- حين سأله رجل: أيهما أفضل للمرء، أن يُمكن، أو يُبتلى؟ فقال الشافعي: لا يمكن

حتى يبتلى، فإن الله تعالى ابتلى نوحاً، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، ومحمداً صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين - فلما صبروا مكّتهم، فلا يظن أحد أن يخلص من الأكم البتة⁽⁵⁹⁾.

فالابتلاء هو وسيلة الإعداد لهذه المهمة العظيمة، وفي قصة طالوت شاهد على ذلك⁽⁶⁰⁾، في قوله تعالى: (فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنْ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرَبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ) [249: البقرة]، وحمل الأمانة في العمل بعد الانتصار - على الباطل - لا يصلح له كل الناس، إنما يحتاج لقوم مختارين، يُعدّون إعداداً خاصاً ليحسنوا القيام به⁽⁶¹⁾، إن الابتلاء مكمل لحقيقة الإيمان؛ لأن الإيمان أمانة الله تعالى في الأرض، وهذه الأمانة لا يحملها إلا من هم أهل لها، وفيهم على حملها قدرة، وفي قلوبهم تجرد لها وإخلاص، والذين يؤثرونها على الراحة والدعة، وعلى الأمن والسلامة، وعلى كل صنوف المتاع والإغراء⁽⁶²⁾.

"قالفتنة والابتلاء امتحان بشدائد التكليف من مفارقة الأوطان، ومجاهدة الأعداء وسائر الطاعات الشاقة، وهجر الشهوات، وبالفقر والقطق وأنواع المصاعب في الأنفس والأموال، ومصابرة الكفار على أذاهم وكيدهم"⁽⁶³⁾.

فاختبار الله تعالى لعباده تارة بالمسارّ ليشكروا، وتارة بالمضار ليصبروا، فالمنحة والمحنة جميعاً بلاء، فالمنحة مقتضيه للصبر، والمنحة مقتضيه للشكر، والقيام بحقوق الصبر أيسر من القيام بحقوق الشكر، فالمنحة أعظم البلاءين⁽⁶⁴⁾، ولكن الاستعجال في المحن يكون لجهل في الأمة والجماعة المؤمنة⁽⁶⁵⁾.

فالاصطفاء من الخالق - جل وعلا - للشهادة لا يقل أهمية عن الاصطفاء للرسالة أو النبوة، قال سبحانه: (وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ) [140: آل عمران]، وهذا لا يكون إلا لحظة العسر والابتلاء، ونقول إن الله تعالى اصطفى أهل غزة؛ ليكونوا شهداء في دفاعهم عن أوطانهم ومقدساتهم وأمتهم، وكذلك شهداء الأمة في كل بقاع العالم.

ويعقب العسر التيسير والفرج، فسنة التيسير سنة إلهية حتمية بعد الشدة في التاريخ، فلن يبتلى الله تعالى عباده في دنياهم وعافيتهم إلا ويعقب هذا الابتلاء فرج ورخاء، ولكن بشروط.

يقول تعالى: (فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى) [7: الليل]، وقوله تعالى: (وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا) [4: الطلاق]، وقوله: (سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا) [7: الطلاق]، وقوله: (وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَى) [8: الأعلى]، وفي الآيات تحقيق الوعد باليسر؛ للحث والتحريض على العمل، وبعث الناس على التنافس في العلم والعمل، ففي اليسر صلاح حالهم وأمرهم، وتقريج الكرب وتيسير الصعوبات من أعظم الأرزاق من الله تعالى⁽⁶⁶⁾.

ومن دقائق التعبير القرآني في سورة الشرح، إن الله تعالى يقول: (فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا) [5: الشرح]، واليسر يأتي بعد العسر عادة، ولكن القرآن يقرب اليسر إلى العسر للناس، ويوحى إليهم بالتصاق اليسر بالعسر، فيعبر عن هذا التجاوز والتعاقب القريب بين اليسر والعسر بكلمة (مع) في قوله: (فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا * إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا) [5-6: الشرح]، فإن لكلمة (مع) من الأداء ما ليس لكلمة بعد.

"إن (مع) في الآيات للصحبة، ومعنى اصطحاب اليسر والعسر، أراد الله أن يصيبهم بيسر بعد العسر الذي كانوا فيه بزمان قريب، فقرب اليسر المترتب حتى جعله كالمقارن للعسر، وزيادة في التسلية وتقوية القلوب" (67).

ومن لطائف التعبير في آيتي اليسر، تكرير اليسر في الآيتين وتعريف العسر فيهما بالآلف واللام، (فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا * إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا) [5-6: الشرح]، والقاعدة: أن المعرفة إذا أعيدت في الكلام المتصل على نحو التعريف، كان المقصود به نفس الشخص الأول، بخلاف النكرة، إذا أعيدت في الكلام المتصل على نحو التكرير، فإذا قلنا: "إذا كسبت الدينار فأنفق الدينار"، كان المقصود نفس الدينار، وإذا قلنا: "إذا كسبت ديناراً فأنفق ديناراً" لم يكن المقصود بالدينار الثاني نفس الدينار الأول.

وفي آيتي اليسر في سورة الشرح، يرد اليسر على نحو التكرير في الآيتين، بينما يرد العسر فيهما على نحو التعريف، فلا بد أن يكون المقصود من العسر فيهما عسراً واحداً، بخلاف اليسر.

والسر في ذلك أن الآلف واللام في العسر الثاني للعهد وهو إشارة إلى العسر الأول، فيكون واحداً بخلاف اليسر (68)، ولا شك أن الحكم المستفاد من هذه الآيات ثبوت التحاق اليسر بالعسر عند حصوله (69)، وقد روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم - خرج يوماً مسروراً فرحاً وهو يضحك ويقول: لن يغلب عسر يسرين" (صحيح البخاري، كتاب التفسير، باب "الم نشرح"، حديث رقم 442).

وذلك يتطلب وعي العسر، فالعسر واليسر سنتان إلهيتان حتميتان ووعي هاتين السنتين يمكن المسلم من الانتفاع بهما، والإفادة منهما، فإن الناس يخضعون لسنن الله في حياتهم، ففي سورة آل عمران يرسم لنا القرآن الكريم صورة دقيقة لسنة العسر، تتضمن كثيراً من الحقائق والإحياءات، يقول تعالى: (إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ) [140: آل عمران]، إن العسر من خصائص المعركة، فمن يدخل المعركة يمسّه شيء من العسر والشدة، ولا تختص بالمؤمنين فقط، فإن ما يصيب الكفار من القروح لا نقل عما يصيب المؤمنين، فالأيام دول، وهذه المحن والشدائد تفرز الرجال الأشداء، والذين يتخذ الله منهم الشهداء والقادة (70)، "فالتجديد إنما يكون بعد الدروس" (71)، يقول الرسول صلى الله عليه وسلم: "إن الله يبعث

لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها" (أبو داود، كتاب الملاحم، باب ما يذكر في قرن المائة، حديث رقم 291).

إن القرآن الكريم يؤكد على عمق التوحيد في الضر واليسر والعسر، وفي نفس الوقت تُشَدُّ هذه السنن بإرادة الإنسان واختياره وفعله؛ ليؤدي دور الخلافة في الأرض لقوله تعالى: (لَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْخَلَّوْا الْبَنَةُ وَلَمَّا يُاتِيَكُمُ الْمَوْتُ تَقَالِبُكُمْ مُسْتَنْهَاتُ الْبُؤْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَزَلْزَلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ) [214: البقرة].

يقول سيد قطب: "وحقيقة الإيمان لا يتم تمامها في جماعة حتى تتعرض للتجربة والامتحان والابتلاء، وحتى يتعرف كل فرد فيها على حقيقة طاقته، وعلى حقيقة غايته، ثم تتعرف الجماعة على حقيقة اللبانات التي تتألف منها، ومدى تماسك هذه اللبانات في ساعة الشدة" (72).

إن العلاقة بين البعد الإيماني والانتاج الحضاري تحتاج إلى مزيد من التأمل والنظر؛ لتحقيق الشهود الحضاري، والسنن التي تحكم الكون والحياة قدر من قدر الله تعالى، والتعرف عليها والانضباط بمقتضياتها حقيقة التكليف، وهو مظهر من مظاهر العدل الإلهي المطلق، فكيف يصح عدلاً أن يُعطى من لا يعمل، ويحرم من يعمل؟، إن الانحسار الحضاري الذي يعاني منه المسلمون اليوم، كان بسبب العدول عن الانضباط والانسلاخ بالسنن، التي شرعها الله للشهود الحضاري (73)؛ لتنتهي بالأمة الإسلامية إلى مشروع إسلامي حضاري شامل يواجه المشروع الحضاري الغربي العالمي المطروح بشقيه المادي الماركسي والمادي الليبرالي (الرأسمالي) (74).

إن الإيمان الذي يقوم عليه بنيان الدين يجيء دائماً بمثابة "معامل حضاري" يمتد أفقياً لكي يصب إرادة الجماعة المؤمنة على معطيات الزمن والتراب، ويوجهها في مسالكها الصحيحة، كما يمتد عمودياً في أعماق الإنسان ليعت فيه الإحساس الدائم بالمسؤولية، ويقظة الضمير، ويدفعه إلى سباق زمني لا مثيل له لاستغلال الفرصة التي أتت له كي يفجر طاقاته، إذا جاز أن نسميه السباق الحضاري، لقوله تعالى: (فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ) [148: البقرة].

إن تأكيد الإسلام على قانون التغيير في قوله: (ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ) [53: الأنفال]، يعني أن يمنح الإرادة البشرية المؤمنة فرصتها في صياغة المصير، في التشبث به أو استعادته إذا ما أفلت من بين يديها، ومن ثم فإنه ما إن تنهيا هذه الإرادة للعمل عن طريق الشحن النفسي، والاستعداد الروحي والعقلي والأخلاقي والجسدي، حتى تكون قادرة على مواجهة التحديات، وتصوغها من جديد لصالح الإنسان، وهكذا يعود المسلم -في المنظور الإسلامي- لينتصر على تحدياته، وليستعيد قدرته الأبدية على التجدد والتطور والإبداع (75)، ولذلك قال سبحانه: (وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا

اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِیُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ
[60: الأنفال].

"لقد فهم كثير من المسلمين عملية التغيير فهماً خاطئاً، وصوروها مجرد للتوئب الروحي، أو إعادة التزام بحشد من القيم الخلقية، أو السلوكية التي دعا إليها الإسلام، وسنقع في الخطأ لو قلنا: إن الحل يكمن "فقط" في إعادة تشكيل العقل المسلم، والدعوة إلى قيام عصر التكنولوجيا الإسلامية، وتشكيل المجتمع الإسلامي التقني⁽⁷⁶⁾.

المبحث الثالث: المقاومة

قال سبحانه: (فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ) [7: الشرح]، إن الاسترخاء في العمل من أضر الأشياء على حركة العامل، وعلى الإنسان أن يكافح حالة الاسترخاء، ولا يسمح لها أن تتخلل فترات عمله، ويواصل العمل ليلاً ونهاراً، والآية الكريمة تأمر المؤمنين ألا يسمحوا أن تتخلل أعمالهم فترات الاسترخاء.

والنَّصَبُ في اللغة يأتي بمعنيين: التعب والجهد⁽⁷⁷⁾، وبمعنى القيام⁽⁷⁸⁾، وعلى كلا المعنيين يستقيم تفسير الآية الكريمة بالمعنى الذي ذكرناه، سواء قلنا: فإذا فرغت من عمل فأجهد نفسك لعمل آخر، أو فإذا فرغت من عمل فقم وانهض لعمل آخر.

والنَّصَبُ في العبادة أو الدعاء⁽⁷⁹⁾ عمل، ووصل العبادات بعضها ببعض عمل أيضاً، فإذا فرغ من عبادة أتبعها عبادة أخرى⁽⁸⁰⁾، وبذلك تعتبر هذه الآيات بمثابة الأحجار الكريمة في بناء الصرح الحضاري المعلن في القرآن الكريم، فالإسلام موجود ومشروعه الحضاري مفقود⁽⁸¹⁾، وفي ذلك تهديد وإفادة لإيلاء العمل بعمل آخر في تقرير الدين ونفع الأمة⁽⁸²⁾.

"إن مواصلة العمل ومقاومة حالة الاسترخاء من المعاني التي أكد عليها القرآن الكريم، قال تعالى: (فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ) [10: الجمعة]، "أي أنها صيغة بمعنى الإباحة بجلب الرزق في التجارة، كما أن إباحة الانتشار زائلة بفرضية أداء الصلاة، فإذا زال ذلك عادت الإباحة، فيباح لهم أن يتفرقوا في الأرض وابتغوا من فضل الله"⁽⁸³⁾.

وإذا نظرنا إلى آية أخرى، نجد الإشارة إلى التكليف الذي تشكلت بموجبه الأرض بحيث تكون ملائمة لسعي الإنسان وانتشاره فيها، بل تمكنه من السيطرة عليها وتسخيرها لخدمته، في قوله تعالى: (هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ) [15: الملك] فذكر المفسرون في معنى ذلولاً: أنها سهلة (أي أسهلها لكم تعلمون فيها ما تشتهون)، وقيل: الذلول من كل شيء، المنقاد الذي يذل لك، ومصدره الذل وهو الانقياد⁽⁸⁴⁾.

فالمفهوم الفقهي للعمل في الإسلام واسع كالجهاد والتجارة والزراعة ورعي الأغنام... الخ، واعتبر الإسلام العمل نعمة عظيمة تستحق الشكر⁽⁸⁵⁾، قال تعالى: (لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ) [35: يس]، وقوله: (وَإِنْ تَعَدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا) [34: إبراهيم].

إن تجسيد المنطق العملي ومقاومة الاسترخاء في سلوكنا هو قضية تربوية، لا بد أن يرضع لبانها المسلم منذ صباه، فيربي على حب إنجاز العمل بالوسائل المتاحة في المجتمع، وأن القيام بالواجبات على أحسن حال هو من صحيح مفهوم العبادة التي من أجلها خلق الإنسان، قال تعالى: (وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ * مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُوا * إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ) [56-58: الذاريات].

إن المسلم المعاصر لا ينقصه منطق الأفكار؛ لأنه متضمن في الكتاب والسنة، بل ينقصه المنطلق العملي الذي يحول الأفكار والمبادئ إلى أعمال نلمس آثارها في واقعنا الإسلامي⁽⁸⁶⁾.

فالقرآن الكريم يقول لنا: (اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ) [1: العلق]، ونحن لا نقرأ القراءة الحضارية المطلوبة منا، ويقول لنا: (وَأَقْصِيْ فِي مَشْيِكَ) [19: لقمان]، ونحن لا نقصد في مشينا، ويقول لنا: (وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا) [18: لقمان، 37: الإسراء]، ونحن نمشي في الأرض فرحين مرحين كأنه لم يحدث لنا ما يدعو إلى بذل الجهد ليل نهار للخروج من الإمعية الحضارية التي غرقنا فيها.

يقول مالك بن نبي: "إننا نرى في حياتنا اليومية جانباً كبيراً من (اللافاعلية) في أعمالنا، إذ يذهب جزء كبير منها في العبث، والمحاولات الهائلة، وإذا أردنا حصر هذه القضية نرى سببها الأصليل افتقاد الضابط الذي يربط بين عمل وهدفه، بين سياسة ووسائلها، بين ثقافة ومثلها، بين فكرة وتحقيقها، فسياستنا تجهل وسائلها، وثقافتنا لا تعرف المثل العليا، وإن ذلك كله ليتكرر في كل عمل نعمله، وفي كل خطوة نخطوها"⁽⁸⁷⁾.

وقد كانت سورة المزمل من أوائل ما نزل من الوحي على قلب الرسول صلى الله عليه وسلم - يخاطب الله تعالى فيها رسوله: (يَا أَيُّهَا الْمَزْمُلُ * قُمْ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا * نَصَبْتَ أَوْ انْقَصَ مِنْهُ قَلِيلًا * أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا * إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا * إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْأً وَأَقْوَمُ قِيلًا * إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا) [1-7: المزمل]، وفيه إرشاد إلى أن النهار ظرف واسع لإيقاع ما عسى أن يكلفه قيام الليل من فتور بالنهار؛ لينام بعض النهار وليقوم بمهامه فيه⁽⁸⁸⁾، ومع السبح الطويل الشاق الذي ينتظره صلى الله عليه وسلم - في النهار، يأمره الله تعالى أن يقوم الليل إلا قليلاً، نصفه، أو ينقص منه أو يزيد عليه.

وفي سورة المدثر يأمر الله تعالى نبيه بالقيام والمقاومة معاً، قوله تعالى: (يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنْذِرْ * وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ * وَتَبَارَكَ فَطَهِّرْ * وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ * وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ * وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ) [1-7: المدثر]، وهذه الآيات وصايا ست لتحمل مشاق الدعوة، والقيام بها وعدم الفتور في العمل، أوصى الله بها رسوله في مبدأ رسالته، وهي من جوامع القرآن، أراد الله بها تركية رسوله وجعلها قدوة لأمته⁽⁸⁹⁾.

إن الالتزام بمنهج القرآن الكريم ضرورة لسلامة العمل، بالفكرة، بما شرعه لنا، وليس الالتزام بالأشخاص، أو التنظيمات، أو الجماعات، أو الحكومات التي هي دائماً محل للخطأ والصواب، والكارثة والخلل والأمراض، والعلل تتسلل إلى الحياة الإسلامية من خلال العدول عن هذا المنهج، أو محاولة استلابه من يد الإنسان، ومن ثم تكون العصمة الكاذبة التي تخلع على بعض الأشخاص، والمبررات المضحكة التي توضع لتصرفاتهم وأخطائهم، وهذه بدء مرحلة السقوط، حيث تبدأ عملية تخديم الأهداف والقيم لا خدمتها⁽⁹⁰⁾.

إن المنطق الإيماني يفرض علينا العودة إلى العمل؛ لأننا نعيش في حيرة، وقلق وتناقض، وهزيمة، وتخلف، فالحضارة الإسلامية عرفت بأنها حضارة علمية إيمانية عملية معاً⁽⁹¹⁾.

والدافع إلى ذلك أن العامل في الإسلام يعين الله ورعايته، قال تعالى: (وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ * وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِنْبَارَ النُّجُومِ) [48-49: السطور]، بأعيننا: أي بمحل العناية والكلاءة⁽⁹²⁾ من الله تعالى، وفي الآيات أمر بالتسبيح وهو عمل؛ ليفصل بين النوم المحتاج إليه، وبين التناوم الناشيء عن التكاسل⁽⁹³⁾.

وهذا التسبيح هو الزاد الذي يعين الرسول صلى الله عليه وسلم - لمواصلة المقاومة والصبر، وهذا هو منهج القرآن في العمل، عمل متصل وشاق، في الليل والنهار، صبر وحركة واستقامة، وبالجمع بين التسبيح والمقاومة يتم العمل.

إذ إن قيمة الإنسان في الحياة من خلال عمله، ولهذا ذكر القرآن الكريم الإيمان مقروناً بالعمل في مواضع كثيرة، ولم يكتف بذكر العمل مجرداً، وإنما قرنه بالصالحات التي هي كلمة جامعة لكل ما تصلح به الدنيا والحياة المادية والروحية، وما يصلح به الدين والفرد والمجتمع⁽⁹⁴⁾؛ لأن الإيمان الصادق ليس مجرد إدراك ذهني أو تصديق قلبي من المؤمن غير متبوع بأثر عملي في الحياة، بل إنه اعتقاد وعمل وإخلاص.

وهذا المنهج القرآني يخرج المسلم من دائرة عقدة الاغتراب الحضاري ولا يصاب بأمراض وعلل الاغتراب من الضياع والسقوط الحضاري⁽⁹⁵⁾، فالحضارة شيء، وأخلاقية التحضر شيء آخر، قد نتسلم

معطيات حضارة بكاملها من أجيال سابقة كافحت لكي تصنعها وتتميتها، ولكننا لا نحسن التصرف بها فنسوقها إلى الانكماش والتدهور والسقوط⁽⁹⁶⁾.

يقول د. عبد الرحمن الطرييري: "من نتائج إعادة تشكيل العقل العربي، يفترض التخلص من الروح الانهزامية، ونبذ التبعية، التي أصبحت تكبل الإنسان العربي، وتحد من نشاطه وحيويته، الإنسان العربي لن يكون اليوم أسيراً لمشاعر الدونية والانكسار، بل إن الأنفة ومشاعر العزة والمنعة، ستكون هي البديل⁽⁹⁷⁾، لقوله تعالى: (وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ) [8: المنافقون]، عندئذ تكون العزة الحضارية الفاعلة العاملة للأمة، وبهذه الإرادة والقدرة نضفي صفة الموضوعية على وظيفة الحضارة"⁽⁹⁸⁾.

المبحث الرابع: الذكر والارتباط بالله

تعلمنا مما سبق في هذه السورة أن على الإنسان أن يستجمع كل ما آتاه الله تعالى من قوة ونشاط في طريق العمل، ولا يتوانى عن الحركة، ويشدّ العمل بالعمل، ويصل الحركة بالحركة، وفي هذا المبحث يوجهنا الخالق تعالى أن نوجه كل قوتنا وسعينا واهتمامنا إليه سبحانه، فقال: (وَالِى رَّبِّكَ فَارْغَبْ) [8: الشرح]، أي أجعل نيتك ورغبتك إلى الله عزوجل⁽⁹⁹⁾، ويقول الزمخشري: "واجعل رغبتك إليه خصوصاً، ولا تسأل إلا فضله متوكلاً عليه"⁽¹⁰⁰⁾.

فمن شروط نجاح العمل في الآية الكريمة أن يوجه العمل إلى الله تعالى، ولا نطلب مرضاة أحد غير مرضاة الله تعالى، وبهذا توجه الأشواق الإيمانية للمسلم إلى عبودية الخالق تعالى من خلال جعله يحس بمراقبة الله -عزوجل- له في كل مكان وزمان وقربه منه، يقول مالك بن نبي: "إن بناء العالم الروحي للإنسان المسلم يساهم في مضاعفة فعاليته بشكل مثالي رائع"⁽¹⁰¹⁾.

وخلاصة هذا المقام يختصره القرآن الكريم في قوله تعالى: (قُلْ إِنِّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ) [162: الأنعام]، والآية الكريمة دقيقة في التعبير عن المساحة التي يحتلها الارتباط بالله في حياة الإنسان من الإيمان والعمل الصالح⁽¹⁰²⁾، وبذل السعة والإرادة⁽¹⁰³⁾، لقوله تعالى: (وَيَذْعُونَنَا رَغَباً وَرَهَباً) [90: الأنبياء]، وكلما كان الإنسان ذاكراً لله تعالى كان في معية الله فيطمئن قلبه⁽¹⁰⁴⁾.

لهذا لا يمكننا أن نتصور أن أمة من الأمم تحيا وتقيم وحضارة، دون أن تمتلك عقيدة ما، يجتمع عليها أفرادها، ويقدر ما تكون هذه العقيدة خالية من التناقضات، ملبية للحاجات الإنسانية المختلفة وتصل بأهلها إلى الأمن والاستقرار والرفق والرفاه، وهذا ابن خلدون يقرر أن الدول المتصدرة غيرها من الدول إما من نبوة أو دعوة حق⁽¹⁰⁵⁾.

والذي يدل على أن جانب العبودية هو الأساس والأصل في التقدم المدني والازدهار الحضاري، أو بتعبير القرآن هو الأساس في تحقيق الخلافة لله بجانبها: العبودية والسيادة، هو قول الله تعالى: (إِنَّ اللَّهَ لَا

يُغَيَّرُ مَا يَقُومُ حَتَّى يُغَيَّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ [11: الرعد]، فأثبت أن التغيير التاريخي في حياة الأمم بيده عزوجل، ولكنه بيّن أن هذا التغيير يتوقف على اختيار الإنسان، وأن الله تعالى قد فوض الإنسان وأعطاه الحرية في أن يحدث هو التغيير النفسي والاجتماعي بنفسه ومجتمعه، ثم هو سبحانه يحدث التغيير المدني في المحيط الذي يعيش فيه الإنسان، بناءً على هذا التغيير النفسي الذي يتم بإرادة الإنسان، فتغيير الله في مجال السيادة يتم بناء على تغيير الإنسان في مجال العبودية⁽¹⁰⁶⁾.

لقد أرجع ابن خلدون الحضارة الإسلامية إلى أصلها وأساسها، أو بالأوضح إلى روحها، وهو العقيدة الدينية⁽¹⁰⁷⁾.

إن الوصول إلى حضارة متوازنة يتحقق فيها شرط التقدم والتصدر الحقيقي يكون بعقيدة سليمة، ونفوس منفعة بها، متحركة في الأرض وفق منهجها.

إن الانحرافات العقدية تتمثل شدتها وخطورتها على الحضارات، بمقدار ما تتعلق بمنهج الحياة، ولهذا فقد تتصور أمة تقوم حضارتها على انحراف عقدي خطير في حقيقته، ولكنه أبعد نسبياً عن دائرة التطبيق العملي، إذا استطاعت هذه الأمة أن تعيش فعالية وأخلاقيات مشابهة أو قريبة من فعاليات وأخلاقيات العقيدة السليمة، أكثر مما تتصدر أمة تقوم حضارتها على عقيدة سليمة من الجانب النظري، ولكنها فاقدة للفعالية، وأهلها غير قادرين على التحرك بها⁽¹⁰⁸⁾.

ومن هنا تكون مسؤولية العلماء ورواد الإصلاح في المجتمع، أن يبينوا للناس دين الله تعالى من غير رياء ولا مداينة قياماً بحق النصيحة لله ولرسوله ولعلماء المسلمين وأئمتهم، وقياماً بحق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر اللذين جعلتهما آية التمكين في الأرض دعامة من دعائم نصر الله للمؤمنين، وتعلم هذه المسؤوليات كلما اشتدت بالمجتمع الإسلامي أزماته وضائق عليه حلقاتها، ولن يخلي الله علماء الأمة من هذه المسؤوليات حتى يعنوا إلى ربهم، وإلى دينهم بعمل جاد قوي، ينهض الأمة بأجمعها إلى صفوف العمل الحضاري⁽¹⁰⁹⁾.

فالنقد والنصيحة في العمل الحضاري ذو أهمية بالغة؛ لأن حرمان العملية البنائية الحضارية من هذا المحور يعني أن أعمال البناء مهما كانت معوجة ومنحرفة فإنه يتغاضى عنها، مما يسبب مضاعفات سلبية خطيرة على العمل.

قال تعالى: (وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ) [105: التوبة]، وإحسان العمل مطلوب من الجميع أفراداً وجماعات، قادة ومروسين، كل منهم يأتي بعمله على خير صورة، مستنفداً كل طاقاته في ذلك، والعمل المثقن تزداد أهميته في التقدم الحضاري للأمة يوماً بعد يوم، ويتحقق الذكر الحضاري للمؤمنين كما تحقق لرسولنا صلى الله عليه وسلم- في قوله تعالى: (وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ) [4:

الشرح]، أي بالنبوة⁽¹¹⁰⁾، وشهرته في الأرض والسموات، وانتشار ذكره في الآفاق، وتعظيم قدره صلى الله عليه وسلم⁽¹¹¹⁾.

وأخيراً، يجب أن يكون واضحاً لدينا أن آليات العمل الحضاري بجميع جوانبه، شاملة للفرد والمجتمع، للفكر والعمل، للتعليم والممارسة، للمعرفة والتنظيم، للراعي والرعية، للعالم والآخرة، يبتغي بها الإنسان المسلم مرضاة الله - سبحانه وتعالى - بالحق والعدل، والإعمار والإصلاح، رضاً وسلاماً، وأمناً ونعياً في الدنيا والآخرة.

الخاتمة

ضمنتها أهم النتائج والتوصيات:

1. يواجه العمل الحضاري الإسلامي نكبات مدمرة، مما أدى إلى غيبوبة حضارية للعالم الإسلامي.
2. الدراسة التفصيلية الجادة لعناصر العمل الحضاري: الإنسان، الوقت، الفكرة الموجهة (الإسلام)؛ من أجل إحداث التفاعل اللازم لإقامة البناء الحضاري المنشود.
3. القراءة الحضارية للسنن الإلهية في النفس والآفاق التي تحكم نشوء الحضارات وسقوطها.
4. إعطاء الأهمية البالغة للدراسات المنهجية التي تدور حول بناء منظومة العمل الحضاري، وذلك يعد من أولويات العمل الإسلامي، وهو المدخل الأساسي لأي تجديد حضاري حقيقي.
5. التعاون الفكري والعملية بين مختلف مؤسسات العمل الإسلامي، للنهوض بآليات العمل الحضاري للأمة.
6. بناء الفرد في الإسلام وتزويده بالزاد الفكري من أجل إنهاء وضعية التخلف والتبعية.
7. الاهتمام في القيادات الراشدة وبيان دورها في مسيرة العمل الحضاري في الإسلام.

الهوامش

1. جمال الدين الإفريقي ابن منظور (توفي 711هـ)، لسان العرب، بيروت، دار المعرفة، 1995، ج11، ص474.
2. محمد بن يعقوب الفيروز آبادي (توفي 817هـ)، القاموس المحيط، بيروت، دار إحياء التراث العربي، 1991 (ط1)، ج4، ص30.
3. الراغب الأصفهاني (توفي 425هـ)، مفردات ألفاظ القرآن، تحقيق: صفوان عدنان داودي، دمشق، دار القلم، بيروت، الدار الشامية، 2002 (ط3)، ص587.
4. قورلوا، الموجز في الاقتصاد، ألمانيا، هيئة المستشرقين، ج1، ص48.
5. إسماعيل صبري، دروس في الاقتصاد السياسي، بيروت، دار الفكر، ص79.
6. أيوب بن موسى الحسيني الكفوي (ت 1304هـ)، الكليات، وضع فهارسه د. عدنان درويش ومحمد المصري، بيروت، مؤسسة الرسالة، 1992 (ط1)، ص616.
7. د. طه عبد الرحمن، العمل الديني وتجديد العقل، بيروت، الحمراء، الدار البيضاء، المركز الثقافي العربي، 1997 (ط2)، ص175.
8. محمد بن أبي بكر الرازي، مختار الصحاح، دمشق، المكتبة الأموية، 1971، ص139.
9. إبراهيم مصطفى وآخرون، المعجم الوسيط، تركيا، دار الدعوة، 1989، ج1، ص181.
10. عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، أسس الحضارة الإسلامية ووسائلها، بيروت، دار القلم، 1980 (ط2)، ص11.
11. عبد الرحمن بن خلدون، المقدمة، القاهرة، دار النهضة، 1979، ص172.
12. سيد قطب، معالم في الطريق، مطبعة مخيم، 1384هـ (ط1)، ص29.
13. أبو الأعلى المودودي، الحضارة الإسلامية أسسها ومبادئها، بيروت، الدار العربية، ص5.
14. مالك بن نبي، شروط النهضة، ترجمة عمر مسقادي وعبد الصبور شاهين، دمشق، دار الفكر، 1986، ص62 - ص63، ص98.
15. الجمعية الإسلامية للبناء الحضاري، مقدمات في الرؤية والمنهج، الجزائر، مسجد الجامعة المركزية، 1990، ص21.
16. د. عمر سليمان الأشقر، نحو ثقافة إسلامية أصيلة، الأردن، دار النفائس، 1997 (ط6)، ص25.

17. محمود الأولوسي (ت 1270هـ)، روح المعاني، تحقيق محمد أحمد وعمر عبد السلام، بيروت، دار إحياء التراث العربي، 2000 (ط4)، ج30، ص537.
18. محمد الطاهر ابن عاشور، التحرير والتنوير، بيروت، مؤسسة التاريخ العربي، 2000 (ط1)، ج30، ص360.
19. الأصفهاني، المفردات، ص449.
20. الأولوسي، روح المعاني، ج30، ص537.
21. محمد جمال الدين القاسمي (ت 1322هـ)، محاسن التأويل، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، بيروت، دار إحياء التراث العربي، 2002 (ط1)، ج3، ص423.
22. محمد بن عمر الرازي (ت 604هـ)، التفسير الكبير، منشورات محمد علي بيضون، بيروت، دار الكتب العلمية، 2000 (ط1)، ج26، ص231.
23. الأولوسي، روح المعاني، ج16، ص659.
24. ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج16، ص113.
25. الرازي، التفسير الكبير، ج19، ص171.
26. محمد بن علي الشوكاني (ت 1250 هـ)، فتح القدير، تحقيق وضبط: أحمد عبدالسلام، بيروت، دار الكتب العلمية، 1994 (ط1)، ج4، ص343.
27. الأولوسي، روح المعاني، ج30، ص542.
28. الشوكاني، فتح القدير، ج5، ص578.
29. محمد بن أحمد القرطبي (ت 671هـ)، الجامع لأحكام القرآن، بيروت، دار الكتب العلمية، 1996 (ط5)، ج18، ص188.
30. محمد الغزالي، علل وأدوية، دمشق، دار القلم، 1985 (ط1)، ص236.
31. ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج24، ص62.
32. محمود بن عمر الزمخشري (ت 538هـ)، الكشاف، ضبطه: محمد عبد السلام شاهين، بيروت، دار الكتب العلمية، 1995 (ط1)، ج4، ص118.
33. إبراهيم بن عمر البقاعي (ت 885هـ)، نظم الدرر، ضبط عبد الرزاق المهدي، بيروت، دار الكتب العلمية، 2003 (ط2)، ج6، ص439.

34. مأمون غريب، المسلمون بين الازدهار والانكسار، القاهرة، مكتبة غريب، ص75.
35. محمد عبد المنعم وآخرون، الإسلام وحضارة المستقبل، مصر، ص40.
36. محمد الغزالي، مع الله (دراسات في الدعوة - والدعاة)، دار الكتب الحديثة، 1389 (ط4)، ص188.
37. مالك بن نبي، وجهة العالم الإسلامي، دمشق، دار الفكر، 1986، ص55.
38. د. سيد دسوقي حسن، مقدمات في البعث الحضاري، المكتب المصري الحديث، ص85.
39. إسماعيل بن كثير (ت 774هـ)، تفسير القرآن العظيم، تقديم د. يوسف عبد الرحمن، بيروت، دار المعرفة، 1994 (ط1)، ج4، ص564.
40. جودت سعيد، اقرأ وربك الأكرم، دمشق، دار الفكر، 1998 (ط1)، ص21.
41. الجمعية الإسلامية للبناء الحضاري، مقدمات في الرؤية والمنهج، ص23.
42. ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج2، ص181.
43. الشوكاني، فتح القدير، ج5، ص38.
44. الشوكاني، فتح القدير، ج5، ص38.
45. محمد بن جرير الطبري (ت 310هـ)، جامع البيان، تحقيق بشار معروف وعصام فارس، بيروت، مؤسسة الرسالة، 1994 (ط1)، ج4، ص58.
46. الرازي، التفسير الكبير، ج29، ص210، ص213.
47. الألوسي، روح المعاني، ج10، ص24.
48. محمد رشيد رضا، المنار، سورية، دار الفكر، ج10، ص62-63.
49. د. هاني الطعيمات، أسلحة الدمار الشامل ومعااهدات نزاعها، مجلة مؤنة للبحوث والدراسات تصدر عن جامعة مؤنة، الأردن، م11، عدد6، ص337.
50. د. فتحي الدريني، المناهج الأصولية، دمشق، دار الكتاب، ط1، ص530.
51. د. أحمد نوفل، الحرب النفسية من منظور إسلامي، عمان، دار الفرقان، 1987، ص91-ص92.
52. الكفوي، الكليات، ص187.

53. د. محمد أبو فارس، مشكلات تواجه العمل الإسلامي، عمان، دار الفرقان، 2006، ص42 - ص43.
54. أحمد بن تيميه (ت 728هـ)، مجموع الفتاوى، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، بيروت، دار الكتب العلمية، 2000 (ط1)، ج9، ص311.
55. د. طه عبد الرحمن، تجديد المنهج في تقويم التراث، الدار البيضاء، المركز الثقافي، 1994 (ط1)، ص338.
56. د. توفيق الواعي، الإسلام في العقل العالمي، المنصورة، دار الوفاء، 1990 (ط1)، ص73.
57. د. توفيق الواعي، الإسلام في العقل العالمي، ص82 - ص83.
58. د. علي محمد الصلابي، فقه النصر والتمكين في القرآن الكريم، بيروت، دار المعرفة، 2005 (ط1)، ص384.
59. ابن القيم، الفوائد، الإسكندرية، دار الدعوة، ص283.
60. محمد السيد محمد يوسف، التمكين للأمة الإسلامية في ضوء القرآن، القاهرة، دار السلام، 1997 (ط1)، ص235.
61. محمد قطب، حول التفسير الإسلامي للتاريخ، المجموعة الإسلامية، ط3، ص111-ص112.
62. سيد قطب، الظلال، بيروت، دار الشروق، 1994 (ط23)، ج2، ص1090.
63. عبدالله بن أحمد النسفي، تفسير النسفي، بيروت، دار الكتاب العربي، ج3، ص249.
64. الراغب الاصفهاني (ت 502هـ)، المفردات في غريب القرآن، تحقيق محمد سيد كيلاني، بيروت، دار المعرفة، ص61.
65. د. عبد الكريم زيدان، السنن الإلهية، بيروت، مؤسسة الرسالة، 1998 (ط3)، ص101.
66. ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج28، ص291.
67. الزمخشري، الكشاف، ج4، ص760.
68. الألوسي، روح المعاني، ج30، ص544 - ص545.
69. ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج30، ص367.
70. محمد الشعراوي، تفسير الشعراوي، القاهرة، أخبار اليوم، ج3، ص1780.
71. ابن تيميه، الفتاوى، ج18، ص297.

72. سيد قطب، الظلال، ج1، ص1090.
73. عمر عبيد حسنه، مراجعات في الفكر والدعوة والحركة، الرياض، الدار العالمية، 1992 (ط2)، ص13 - ص15.
74. د. عبد الحليم عويس، النهضة الإسلامية، السعودية، منشورات جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، 1992، ص9.
75. د. عماد الدين خليل، حول تشكيل العقل المسلم، الرياض، الدار العالمية، 1993 (ط5)، ص164.
76. د. عماد الدين خليل، حول تشكيل العقل المسلم، ص165.
77. الأصفهانى، المفردات، ص88.
78. الفيروزآبادي، القاموس المحيط، ج1، ص296.
79. الشوكاني، فتح القدير، ج5، ص579.
80. الرازي، التفسير الكبير، ج32، ص80.
81. د. أحمد القنيدى، نحو مشروع حضاري إسلامي، يصدر عن رابطة العالم الإسلامي، 1417هـ، العدد 171، ص155.
82. ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج30، ص368.
83. الرازي، التفسير الكبير، ج30، ص9. القرطبي، الجامع، ج18، ص140.
84. الرازي، التفسير الكبير، ج30، ص69.
85. د. عبد العزيز الخياط، نظرة الإسلام للعمل وأثره في التنمية، عمان، دار السلام، ص29 ص33.
86. مالك بن نبي، شروط النهضة، ص95.
87. مالك بن نبي، شروط النهضة، ص96.
88. ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج29، ص246.
89. ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج29، ص279.
90. عمر عبيد حسنه، نظرات في مسيرة العمل الإسلامي، كتاب الأمة، قطر، 1405هـ (ط1)، ص21 ص22.
91. د. يوسف القرضاوي، لماذا الإسلام، بيروت، مؤسسة الرسالة، 1993 (ط)، ص40.

92. ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج4، ص262.
93. ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج27، ص94.
94. د. يوسف القرضاوي، الإيمان والحياة، بيروت، مؤسسة الرسالة، ص300.
95. عمر عبيد حسنة، نظرات في مسيرة العمل الإسلامي، ص131.
96. د. عماد الدين خليل، حوار في المعمار الكوني، الدوحة، دار الثقافة، 1987(ط1)، ص84.
97. د. عبد الرحمن الطريوي، العقل العربي وإعادة التشكيل، كتاب الأمة، قطر، ط1، ص140.
98. مالك بن نبي، مشكلات الحضارة، بيروت، دار الفكر، 2002 (ط2)، ص140.
99. ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج4، ص562.
100. الزمخشري، الكشاف، ج4، ص762.
101. الجمعية الإسلامية للبناء الحضاري، مقدمات في الرؤية والمنهج، ص17.
102. محمد جمال الدين القاسمي (ت 1322هـ)، محاسن التأويل، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، بيروت، دار إحياء التراث العربي، 2002، ج3، ص480.
103. الأصفهاني، المفردات، ص358.
104. سعيد حوى، من أجل خطوة للأمام، القاهرة، مكتبة وهبه، 1979، ص26.
105. ابن خلدون، المقدمة، ص78.
106. د. فاروق الدسوقي، استخلاف الإنسان في الأرض، بيروت، المكتب الإسلامي، 1986(ط2)، ص62 ص63.
107. محمد الفاضل ابن عاشور، روح الحضارة الإسلامية، تقديم عمر عبيد حسنة، الولايات المتحدة الأمريكية، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، 1992(ط1)، ص66 ص72.
108. نداء زقزوق، سنة الله في إحياء الأمم واضمحلالها، رسالة ماجستير غير منشورة، الجامعة الأردنية، 2001، ص140.
109. د. محمد الصادق عرجون، سنن الله في المجتمع، السعودية، دار النشر، 1984(ط3)، ص71.
110. روح المعاني، الألويسي، ج30، ص543.
111. الرازي، التفسير الكبير، ج32، ص6.